إنه النسمة المباركة ﷺ

قالت حليمة السعدية: خرجتُ مع زوجي في سنةٍ شهباء[١] لم تُبق لنا شيئاً، قالت: فخرجتُ علىٰ أتانٍ لي قمراء[٢]، معنا شارفٌ لنا[٣]، والله ما تبضّ بقطرة[٤]، وما ننام ليلنا أجمع من صبيّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يُغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه ولكنا كنّا نرجو الغيث والفرج، فخرجتُ علىٰ أتاني تلك، فلقد أدمتُ[٥] بالركب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً[٦]، حتىٰ قدمنا مكة نلتمسُ الرُّضعاء، فما منّا امرأةٌ إلاّ وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيمٌ، وذلك أنّا إنّما كنّا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنّا نقول: يتيمٌ!! وما عسىٰ أن تصنع أمّه وجدّه؟ فكنّا نكرههُ لذلك.

فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلاّ أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلتُ لصاحبي: والله إني لأكرهُ أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذنَّه. قال: لا عليكِ أن تفعلي، عسىٰ اللهُ أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبتُ إليه فأخذتهُ، وما حملني علىٰ أخذه إلاّ أني لم أجد غيره، قالت: فلما أخذتهُ رجعتُ به إلىٰ رَحْلي، فلما وضعتُهُ في حجري، أقبل عليه ثدايَ بما شاء من لبن، فشرب حتىٰ روي، وشرب معه أخوه حتى روي،

---

(١) أي: سنة ذات قحطٍ وجدْب.

(٢) القُمرة: شدّة البياض.

(٣) أي: ناقة مُسنّة.

(٤) أي: ما ترشح بقطرة من حليب.

(٥) أي: تأنّيتُ فيه.

(٦) أي: هزالاً.

ثم ناما ، وما كنّا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلىٰ شارفنا تلك فإذا إنّها لحافلٌ[1] ، فحلَبَ منها ما شرب ، وشربتُ معه حتىٰ انتهينا ريّاً وشبعاً، فبتنا بخير ليلةٍ.

قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذتِ نسمةً مباركة ، قالت: فقلتُ: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا ، وركبتُ أتاني ، وحملته عليها معي، فوالله لقطعتُ بالركب، ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتىٰ إن صواحبي ليقُلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك!! ارْبعي[2] علينا ، أليستْ هذه أتانكِ التي كنتِ خرجت عليها؟! فأقولُ لهنّ: بلىٰ ، والله إنها لهي هي ، فيقلن: والله إن لها لشأناً !

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلمُ أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروحُ عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّنَاً[3] فنحلبُ ونشربُ ، وما يحلبُ إنسانٌ قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتىٰ كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم!! اسرحوا حيث يسرحُ راعي بنتِ أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لُبَّناً ، فلم نزل نتعرّفُ من الله الزيادة والخير حتىٰ مضت سنتاه ، وفصلْتُه ، وكان يَشِبُّ شباباً لا يشبّهُ الغلمان ، فلم يبلغ سنته حتىٰ كان غلاماً جفراً[4][5].

نعم يا منقذ الأيتام يا محمد:

ولد اليتيم ليُنقذ الأيتام من ... بؤس الحياة إذا رمىٰ الحَدثانُ
ولد الفقير لينقذ الفقراء من ... ظلم الغني فيوأد الحرمانُ
ولد المنشّأ نشأةً أميّة ... فسما بنور كتابه العرفانُ

---

(١) الضرع الحافل: الممتلئ لبناً.
(٢) أي: ارفقي واقتصري.
(٣) يُقال: ألبنتِ الناقة ، إذا نزل لبنها في ضرعها.
(٤) استجفر الصبي: قوي علىٰ الأكل.
(٥) تاريخ الطبري: ٢/ ١٥٨ ، سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٣ ، البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ٢٧٥.

وتعلّـم الحكمـاء مـن نفحـاتـه شتـى المعـارف وارتـوىٰ الظمـآنُ
ولـد المـؤسّـس للعبـاد حضـارةً سجـدت لهـا مـا أسّـس الـرومـانُ
وبنـىٰ علىٰ الأخـلاق أعظـم دولـةٍ قـانـونهـا وعمـادهـا القـرآنُ

* * *